

باب

سعادته (المسلمين) وفاتهم في ضوء الكتاب والسنة

تأليف

شيخ الحديث حضرة العلامة

محمّد زكريّا الكانجي هلوئي

نقله من الأردية الأستاذ الأديب

سعيد الرحمن الأعظمي

أستاذ دار العلوم لندوة العلماء — ومنشور مجلة « البعث الإسلامي »

يطلب من

المكتبة الإمدادية - باب العمرة

مكة المكرمة

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ)
قرآن کریم،

أسباب سعادة المسلمين وشقائهم
في ضوء الكتاب والسنة

الطبعة الثالثة

عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٢ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم : فضيلة الشيخ الداعية الكبير

أبي الحسن علي الحسني الندوي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ،
محمد وآله وصحبه الطاهرين الطيبين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم
الدين .

أما بعد فقد كثرت التساؤلات عن واقع المسلمين الحاضر وأسبابه
وحارت العقول في فهمه وتعليله . وكثر الضجيج والعيول مما يدهم
المسلمين من مصائب وحوادث ونكبات بين حين وآخر ، والشقاء
الذي قد لزهمهم ولج بهم ، حتى أصبح بعض الناس يعتقدون أن بين
المسلمين وبين هذه الكوارث والملمات ويذنبهم وبين الشقاء والبلاء نسباً
قريباً ورحماً ماسة ، وتمثل بعضهم بيت للشاعر الإيراني المشهور بأنوري
كأنه ينشد بلسان حال المسلمين : إن البلاء إذا نزل من السماء بدأ بالسؤال
عن بيت الأنوري ومقره لينزل عليه ، واعتقد بعض الناس أن

الكوارث والتسكيات إنما هي خبط عشواء ، ورمية في ظلام وعماء
وتمثلوا ببیت زهير بن أبی سلی :

رأيت المنایا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطى يعمر فيهم

ورأى بعض الناس في ذلك تناقضاً مع ما استفاض وتواتر ونطق
به القرآن ، ووردت به السنة من إيتار الله لهذه الأمة على الأمم ،
واختيارها لحل كتابه ، وإعزاز دينه ، والانتساب إلى نبيه ، فهي
الأمة الأخيرة ، وهي الأمة المرحومة ، وهي الأمة المختارة ، وما وعد
الله لها بالنصر ، والعزة ، والغلبة على الأعداء ، وظهور الدين على
الأديان كلها ، هذا وقد أصبح المسلمون — خصرصاً في هذا العصر —
دریئة المصائب ، وغرض السهام ، وهدف الآلام ، وأضيع من الأيتام
في مادة اللثام ، (١) .

وما نشأ هذا التساؤل المستمر ، وهذه الحيرة المدهشة إلا عن
جهل لقانون المجازاة الدقيق الحكيم ، الذي اشتمل عليه القرآن
وزخرت به دواوين السنة وكتب الحديث ، والغفلة عن الصلة الخفية
المتينة الدائمة بين الأسباب والمسببات ، والنتائج والمقدمات ، وبين

(١) كلمة مقتبسة من خطبة طارق بن زياد في الأندلس

الأعمال والأخلاق والآثار ، والنتائج في حياة الأفراد وفي حياة الأمم وذلك علم نطقته به الكتب السماوية ، واختص به الكتاب الأخير ، الذى أكرم الله به محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته ، حتى أصبح علماً مدوناً واضح المعالم ، بين الملامح ، ليس فيه التباس ولا غموض ، حتى استحق بذلك أن يسمى الطب القرآنى ، أو الطب النبوى ، يوازى طب الأجسام الذى توارثته الأجيال ، وتناقلته الأمم ، وتعاملت به الأطباء والحكماء ، فلكل عقيدة تأثير ، ولكل عمل نتيجة . ولكل خلق رد فعل ، عليه من علم ، وجهله من جهل ، سعدت بعلبه أقوام ، وشقيت بجهله أقوام ، ونجت بالأخذ به أمة فى سالف الدهر ، وهلكت بتركه والثورة عليه أمة ، حكى القرآن قصصها فى وضوح وتفصيل .

وهذه الخواص والتأثيرات التى أودعها الله العقائد والأعمال والأخلاق دائمة بدوامها ، خالدة بخلودها ، كدوام الخواص والتأثيرات فى الأدوية والأغذية ، والحشائش والعقاقير ، والنباتات والمعادن ، بل أشد وأقوى ، إذ هى شريعة الله وسنته فى وقت واحد :

(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) .

فمن عرف هذا القانون الإلهى الخالد ، ومن اطلع على ما ورد فى الأحاديث الصحيحة من خواص الأعمال والأخلاق ، وما يكافى الله به على صالحاتها وطيباتها من جزاء وجائزة ، ورحمة وبركة ، وسلامة

وعافية ، وما يعاقب الله به على الأعمال والأخلاق الفاسدة ، من عقوبات متجانسة وغير متجانسة ، وما خص بعض أنواع المعاصي والذنوب والآثام ، ببعض العقوبات والبلايا والأمراض . وما بين هذه الأعمال والأخلاق وبين هذه العقوبات والآفات من مناسبات دقيقة خضع لهذه الإرادة الإلهية القاهرة ، والحكمة الربانية الباهرة ، ووقف أمامها خاشعاً ، ولم يأخذه العجب فيما يشاهده في أمته وفي عصره ، وآمن بقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ، وبقوله تعالى : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) وأيقن أن ما يشاهده قليل من كثير ، وأن الرحمة الإلهية واللفظ الرباني لا يزال مع هذه الأمة . وأن ذلك ثمرة دعوات النبي صلى الله عليه وسلم التي دعا بها لهذه الأمة أن لا يعمها الله بعذاب ، ولا يستأصل شأفتها ، ولأنها تحمل الأمانة الأخيرة والرسالة الأخيرة ، ولأنها أمل الإنسانية الأخير .

إن هذا السؤال الذي كان - ولا يزال - يساور النفوس الكثيرة من المسلمين ، ويجول في خواطرهم ، وقد تفيض به السنة الخطباء وأقلام الكتاب ، يستحق أن يستمع إليه ، ويتلقى في رفق وحكمة ، وفي وعي وفقه ، ولكن في شجاعة وصرامة . وكان في حاجة إلى تحليل علمي ، واستعراض أمين لنصوص الكتاب والسنة . حتى يكون الجواب مقنعاً

شافياً لكل من يؤمن بالكتاب والسنة ، ويخضع بأحكامهما . ولا يقدر على ذلك إلا من اتسع نظره في دواوين السنة ، وطال اشتغاله بها دراسة وتدریساً ، وشرحاً وإيضاحاً وتأملًا وتعمقاً ، وتضلع من علوم الكتاب والسنة ، وتذوقها تذوقاً ، فأصبحت له علماً ونظراً ، وعملاً وعقيدة .

وقد قیض الله لشيخنا المحدث الكبير العلامة محمد زكريا الكاندهلوى صاحب : أوجز المسالك ، و : لامع الدرارى ، من يوجه هذا السؤال ، ويطلب منه الجواب العلمى الشافى ، فى ضمن أسئلة وجهها إليه تدور حول واقع المسلمين . واختلافهم فى سياسة البلاد . وتنازعهم فى بعض الشخصيات . فبدأ يكتب فى هذا الموضوع . ويحیی عن هذه الأسئلة واحداً بعد واحد . حتى أصبح ما كتبه كتاباً مفرداً سماه : الاعتدال فى مراتب الرجال ، نشره لما اشتمل من فوائد كثيرة ، ولما جاء فيه من مادة غريزة تهم المسلمين جميعاً ، وقد نال هذا الكتاب قبولاً عظيماً كسائر كتبه ، وأعيد طبعه مراراً فى عدد ضخم ، ونال حظوة كبيرة عند رائدى الحق والصواب (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) .

وإن من أهم فصول هذا الكتاب ما يدور حول هذا السؤال والجواب عنه ، وهو التفكير الذى قد أصبح الشغل الشاغل فى الأوساط الدينية والشعبية ولعل ما جاء فى هذا الكتاب فى هذا الموضوع هو أوسع بحث ، وقد

جاء فيه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ما لم نجد في مقال آخر :
(وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا) .

وجزى الله زميلنا العزيز الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى ، أستاذ
دار العلوم لندوة العلماء ، ومنشئ مجلة البعث الإسلامى ، إذ نقله هو
إلى العربية بقله البليغ السيل ، فأحسن إلى المسلمين جميعا ، وأضاف إلى
المكتبة الإسلامية كتابا له قيمته الدينية التربوية ، ينتفع به المسلمون
عامة ، وتنتفع به حلقات التعليم ، وجماعات التبليغ بصفة خاصة .

تقبل الله تعالى سعى المؤلف ، وجزاه أحسن الجزاء .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

ندوة العلماء لكهنؤ — الهند —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بما لا شك فيه أن المسلمين محاطون بأنواع شتى من المشكلات الفردية والاجتماعية ، ولكن ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا نحو التغلب على هذه المشكلات ؟

إن هذا السؤال باعث على الاستغراب إذا كان من قبل رجل مسلم عادى ، فضلا عن أن ينشأ فى نفس عالم من علماء الإسلام ، إذ أنه يعرف جيداً أن الإسلام دين أخبر الله بأكمله فقال :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) .

فكيف يسوغ له أن يقع فريسة اليأس ، ويفكر فيما إذا واجه المسلمون أنواعاً من المشكلات ، ماذا يعملون . وكيف يعيشون ؟

إن الكتاب والسنة لم يدخرا وسعاً فى بيان منهج الحياة وتعاليم الدين والدنيا ، ووضع نظام شامل للحياة يحتوى على كل صغير وكبير ، وما يضر وما ينفع ، وكل ذلك فى أسلوب واضح صريح ،

ثم لم يكتف الإسلام بوضع النظام ، وبيان المنهج فحسب ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام مجتمعاً مثالياً تمثلت فيه تعاليم الإسلام في شكل عملي ، وطبقها الناس على حياتهم ، ولذلك فإن سعادة الدين تتوقف على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما إذا انقلبت الأوضاع ، وبدأنا نعتقد أن اتباع الرسول عليه السلام رجعية ، والعمل بسنته تزمّت ، فكيف يرجى حسن العاقبة في الآخرة ، ومصيرنا في الدنيا ظاهر معلوم ! إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بجميع ما فيها من أعمال وأقوال ككتاب مفتوح أمامنا بفضل الصحابة والمحدثين رضى الله عنهم ، فإذا قابلنا بحياته حياة الأمة الإسلامية نرى كيف أن السنن تفقد مكانتها من القلوب ، وكيف يتجرأ الناس على تركها ونبذها علناً وجهاً ، بل وكيف تحارب السنن اليوم ، ويعتبر من يدعو إليها سفيهاً أو أحمق ، فأى ظلم أكبر من هذا ؟ وأى مبرر للمسلمين أن يشكوا من المشكلات والشقاء ؟ ويسكوا على البلايا والحن ، وقد قال الله تعالى بكل صراحة وإعلان :

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) - سورة الشورى - وقال في سورة

الروم: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

والآيات السكرية في هذا المعنى كثيرة معلومة ، وقد تحدث على بن أبي طالب رضى الله عنه عن الآية الأولى فقال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) وسأفسرها لك يا على ! ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ، ولا اختلاج عرق ، ولا عثر قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر» .

وعن الضحاك رضى الله عنه قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب .

ثم قرأ الضحاك : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) .

ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن .

وقد تكون العلة في الحوادث والمصائب غير ما ذكرت ، ولا يبتلى بها العامة وحدهم ، بل تصيب الأنبياء والأبرياء أيضاً ، وإننى بهذه المناسبة لا أتعرض لشرح هذه الآيات والأحاديث : حتى أحتاج إلى ذكر الاحتمالات والإشكالات الواردة عليها ، وإنما أريد الإشارة إلى تلك القوانين والأسباب التي تشير إليها الأحاديث الآنفة الذكر ، ومن قوة هذه الأسباب قد يصيب ضررها بعض من لا علاقة لهم بهذه المعاصي ، وقد جاء في حديث عن عائشة رضى الله عنها ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « يكون في آخر هذه الأمة خسف ، ومسح ، وقذف » ، قالت : قلت : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا ظهر الخبث » — رواه الترمذى .

وإذا كثر الخبث لا يحول دون عذاب الله شيء ، بالرغم من وجود الصالحين والعلماء .

وقد وردت أحاديث متعددة بعنوانين مختلفة في معنى التواصي بالخير ، والمنع عن الشر ، وإلا فإن الله سبحانه يسلط عذاباً من عنده ، فعن حذيفة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ، ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم » .

— رواه الترمذى —

وعن جرير بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرّون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون ، إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا . .
— رواه أبو داود وابن ماجه —

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام أن اقلب مدينة كذا وكذا » فقال : يا رب ! إن فيهم عبدك فلاناً لم يعصك طرفة عين ، قال : فقال : اقلبها عليهم وعليه ، فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط . .

وهناك مئات من الأحاديث تحتوى على معنى الوعيد ، إذا لم يتألم المرء بالمنكرات ، يعنى إذا لم يقدر على تغييرها فلا بد من أن يستنكرها ، ويتألم منها .

ولننظر الآن إلى الحالة التي نعيش فيها ، ونفكر في العقوبات والبلايا التي نستحقها . بالنسبة إلى المعاصي والذنوب التي تصدر منا ، وبالنسبة إلى تألمنا وقلقنا بالمنكرات التي نشاهدها ، وكيف يرجى — وحالنا هذه — أن تستجاب دعواتنا ، وتنحل مشكلاتنا ، وتنقرض المحن التي نعاني منها ، وإذا كان الله لا يأخذنا بعذاب يفاжئنا ، ونقمة تقضى علينا جميعاً ، فذلك بفضل رحمة الله علينا ، ودعاء نبيه صلى الله عليه وسلم .

لقد أصبحنا نحن المسلمين نعتز اليوم بكل معصية ، ونشق الطريق

لكل منكر ، ونرى كل من يدعو إلى الكفر بعين ملؤها غبطة ، فإن اعترض عليه أحد أو أنكر عليه يعتبر رجعيا ، ومن يستحقون الطرد والحبس ، لأنه يعوق المجتمع عن التقدم ، ويحول دون طريقه إلى النهضة والمدنية ، سبحان الله ! ما أعظم الفرق بين أمستنا ويومنا .

هذا ، ونشير الآن إلى بعض الفروع . مما له صلة ماسة بالموضوع فالجميع يعلم أن الصلاة في الإسلام تحتل المحل الأول بعد الإيمان ، وقد وردت الأحاديث الكثيرة في بيان أهمية الصلاة ، وأن تركها يؤدي إلى الكفر ، وقيل : إن الصلاة فارق بين الكفر والإسلام ، أما الأضرار والخسائر التي تلحق المرء بترك الصلاة فقد ذكرتها بإيجاز في رسالتي « فضائل الصلاة » ، ولكنني أتساءل : ما هو عدد أولئك المسلمين الذين يهتمون اليوم بهذه الفريضة ؟

وأدهى من ذلك وأمر أنه لا يوجد هناك من يحاسب تارك الصلاة ، وينبههم على ذلك . وينذرهم بسوء مصيرهم إذا لم يصلوا ، وإذا أمكنت محاسبة الفقراء من المسلمين ، فلا تمكن محاسبة الطبقة العليا أو الأغنياء ، أو الذين يملكون نوعا من الجاه والشرف ، إنه لا يتجرأ أحد أن يستنكر منهم هذا الذنب ، ويتكلم كلمة خوفا من أن تسوءهم ، وقد بلغ اليوم من جرأة بعض السفهاء أن يجاهر بترك الصلاة ، ويعلن أن الصلاة ليست عبادة ، ومن سوء حظنا أنه يثنى

عليه وأمثاله ، ويعتبره بعض الناس صديقاً للمسلمين ، وعارفاً بمتطلبات العصر ، وقضايا الحياة المعاصرة ، فلا يعارضه عندهم إلا جاهل ، أو من لا يصلح إلا للإمامة في الصلاة ، والذي يجمل مصالح الساعة ، ومطالب الوقت ، وحاجة المسلمين .

وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قرءة عيني في الصلاة ، ولكن الذي يدعى أنه من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر الصلاه شيئاً زائداً ، وهو الذي يتناوله الناس بالإجلال والإكرام ، ويعترفون بدقة نظره ، وسداد تفكيره .

كيف يشتكى المسلمون من الحوادث والنوازل التي تفاجئهم من فينة لأخرى ، وقد تغيرت أحوالهم وحياتهم رأساً على عقب ، بل يجب أن يفكروا فيما إذا نزلت عليهم مصيبة أو فاجعة ، أنها لم تنزل بهم إلا لأنهم سببوا لها ، وأنهم كانوا يستحقون ذلك بما كسبت أيديهم ، وأن يقولوا : لولا رحمة الله وفضله علينا لم يبق لنا ذكر ولا أثر ، وكنا قد أضبحنا في ذمة التاريخ .

هذا عن الصلاة ، أما عن صلتنا بأركان الإسلام الأخرى من الصيام ، والزكاة ، والحج ، فليست إلا ضعيفة ، وليس عدد العاملين بها إلا قليلاً جداً ، ولكن ولوعنا بالمحرمات والمحظورات في تزايد مستمر . ولناخذ الخمر مثلاً ، فإنها نالت لدى كثير من المسلمين انتشاراً ورواجاً ، حتى إنهم يتعاطونها بجرأة بالغة من غير حياء

ولا خجل ، وقد نبه القرآن على تحريمها في آيات كثيرة ، وأمر بالابتعاد عنها ، بكل صراحة ، وقد جاء في الحديث :

حدثنا أبو العباس أنبأنا محمد بن عبد الله أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن حسين الزيادي أن مالك بن سعد التجيبي حدثه أنه سمع عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا محمد ! إن الله لعن الخمر وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والحمولة إليه ، وشاربها ، وبائعها ومبتاعها ، وساقها ومسقاها . » — هذا حديث حسن ، صحيح الإسناد ولم يخرجاه —

فلننظر ، ما أكثر من يبتلى من الناس بلعنة الله ورسوله من أجل حرام هي الخمر ، وكيف ستكون عاقبة هؤلاء الذين تحيط بهم اللعنة من الله الرؤوف بعباده : ومن الرسول العطوف على أمته ؟ ولا تبتعد اللعنة عن الذين يسكتون على هذا المنكر ، رغم قدرتهم على تغييره ، ولننظر إلى ما بلغت إليه حالتنا حول إنكار المنكر وتغييره ، إذ أننا لا نلبث أن نرمي الذين يريدون هذا التغيير بالتمت والرجعية . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الخمر فإنها مفتاح كل شر ، » ولكننا حينما نستفتح أبواب الشر بأيدينا كيف نشكو انتشار السيئات ، وما دمنا نعلم أن فتح هذا الباب يرادف معنى فشو المنكرات . وعموم البلايا والشدائد ، لماذا نضج ونشكو عندما

تأخذنا المحن ، وتفاجئنا النوازل ، إنها لسفاهة وجهل يجب أن
فتجنهما .

ولنأخذ الربا مثلاً، ونأمل فيما جاء حوله من إنذار ومنع في الكتاب والسنة ؛ فقد آذن الله سبحانه بحرب ضد الذين يتعاملون بالربا ثم لا يفتنون ، يقول :

(وَإِنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

وذلك لأن الناس في الجاهلية كانوا يتعاملون بالربا ، فلما جاء الإسلام نهاهم عن ذلك ، حتى عن تنفيذ ما سبق من التعامل الربوى ، فضلا عن أخذ الربا من جديد .

وورد في الحديث ما يفند بخطر الربا ، وما يترتب عليه من عقاب
وسخط من الله ، وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « الربا سبعون جزءاً ، أيسرها أن ينكح الرجل أمه ، ولا شك
أن النيل من عرض المسلم أدهى وأمر من الربا . وفي حديث آخر : « ما
لعن الرسول صلى الله عليه وسلم آكل الربا ، وموكله . وكاتبه ، فحاربه
وشاهديه ، وقال : هم سواء . »

أما إذا نقدنا تعامل الناس اليوم على مقياس الشريعة ، فلا نجد
ما يخلو من تعامل ربوي إلا قليلا جداً ، وأشد من ذلك أننا لا نتلصكاً
في استباحة الربا جهراً ، ونصدر حول ذلك كتباً ومؤلفات ، ويضيق

۲۵۶
انفکات
تقلید
انفکات
انفکات
انفکات

الخناسق على من عارض فى هذه القضية ، وهو يواجـه أوانا من التهم والافتراءات ؛ ثم هو يحارب محاربة شديدة ، ويقاطع فى بعض الأحيان .

وقس على ذلك الأحكام الشرعية الأخرى ، التى لا تنال قيمة فى أعيننا ولا أهمية ، ولا نقيم لها وزناً ما ، كما أن المنكرات والسديئات من الأعمال التى تحذر منها الشريعة ، وتنهى عن اقترافها ، تجد كل تقدير وتحييد ، ولا نرى أى عار فى ممارستها ، والتجاهر بها ، بكل حرية ووقاحة ، من غير أن يوجد هناك من يستنكرها ، أو ينهى عنها ، فإذا تشجع أحد على الاستنكار والحيلولة دونها ، لا يعتبر محمود العقابة .

وبعد هذه الأمثلة التى ضربتها أقدم لكم طائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، يتبين بها مدى انحرافنا عن الجادة ، وحيدنا عن الطريق ؛ وذلك ما يسبب لنا كوارث ونكبات ليست إلا من كسب أيدينا ، وما دام المسلمون يصدقون النبى صلى الله عليه وسلم يجب عليهم أن لا ينسوا نتائج الأعمال التى أخبر بها أمته . فإن النتائج تابعة دائماً للأعمال والأخلاق ، فمن أراد أن يتجنبها ، فليترك الأعمال التى تأتى بنتائج وخيمة شأن الذى يريد أن لا يحترق جسمه من النار فيبتعد عنها جهد الطاقة .

عن على رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » ، قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا . وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه ، وبر صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفًا ، أو مسخًا » . الجامع الصغير للترمذي (١٠٠٠) للترمذي (١٠٠٠) على (الجم)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اتخذ النبیء دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته ، وعق أمه . وأدنى صديقه ، وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف ، وشربت الخمر ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، وزلزلة وخسفًا ومسخًا وقذفًا ، وآيات تتتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » - رواهما الترمذي ، وذكرهما في المشكاة بروايته ، وذكر صاحب « الإضاءة » حديث علي رضي الله عنه بأطول منهما ، وفي « مجمع الزوائد » من حديث عوف بنحوه ، وفيه : وقعت الخللان على المنابر ، واتخذ القرآن مزامير .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى

الله في قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت ،
ولا نقص قوم المسكيات والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم
بغير حق إلا فشا فيهم الدم ، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو .
- رواه مالك - .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : « يا معشر المهاجرين ! خمس خصال إذا ابتليتم بهن ،
وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها ،
إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين
مضوا ولم ينقصوا المسكيات والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤونة ،
وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من
السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا
سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، ولم تحكم
أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » -
رواه ابن ماجه واللفظ له ، والبزار ، والبيهقي ، ورواه الحاكم بنحوه من
حديث بريده ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ورواه مالك بنحوه موقوفاً
على ابن عباس ، وانظره : ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم
الرعب ، ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم
المسكيات والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا
فيهم الدم ، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو . ورفع الطيراني
وغیره إلى النبی صلى الله علیه وسلم .

الخير بالخاء المعجمة والتاء المثناة فوق : هو الغدر ونقض العهد ؛
والسنين : جمع سنة ، وهى العام المقحط الذى لم تنبت الأرض فيه شيئاً ،
سواء وقع قطر أو لم يقع .

وجاء فى حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يبيت قوم
من هذه الأمة على طعم وشرب ، ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا
قردة وخنازير ، وليصدينهم خسف وقذف ، حتى يصبح الناس فيقولوا :
خسف الليلة بنى فلان ، وخسف الليلة بنى فلان بدار فلان ، ولترسلن
عليهم حجارة من السماء . كما أرسلت على قوم لوط ، على قبائل فيها ،
وعلى دور ، ولترسلن عليهم الريح العقيم ، التى أهلكت عاداً ، على قبائل
فيها : وعلى دور لشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات ،
وأكلهم الربا ، وقطيعة الرحم . »

— رواه أحمد والبيهقى وصححه الحاكم —

وفى حديث آخر عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أجدر أن يجعل الله لصاحبه العقوبة
فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ، - رواه
ابن ماجه والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ؛ والحاكم وقال :
صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانى وقال : فيه من قطيعة الرحم والخيانة
والكذب ، وإن أعجل البر ثواباً لصلة الرحم ، حتى أن أهل البيت
ليكونوا فجرة ، فتنمر أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا . »

.. وعن أبي بكرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين
فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات » . الجامع الصغير ٩٢

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عفوا
عن نساء الناس تعف نساؤكم . وبروا آباءكم تبركم أبناءكم » . ج ٢٠ ص ٢٠
(٢١)

وانظروا كيف يتحدث النبي صلى الله عليه وسلم ببالغ الاهتمام :
« والذي نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو
ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منته ، فتدعون فلا يستجيب لكم » .

وجاء في حديث آخر يقول : « إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل
الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه
فلا ينكروا ، فإذا فعلوا ذلك ، عذب الله الخاصة والعامة » .

— رواه في شرح السنة —

ولا شك في أن هذه هي الأمور التي تسبب الكوارث والتمكبات
الجديدة ، كالزلازل ، والأعاصير ، والفيضانات ، والمجاعات ، واصطدام
القطارات ، وما إلى ذلك من الحوادث التي تتجدد كل يوم ، مما لا يأتي
عليه الحصر : وكذلك الأمراض الجديدة والمصائب الحديثة التي
انتشرت اليوم في كل مكان . بينما لم يكن لها وجود من قبل . ويعرف
ذلك من له اطلاع على الأمور . ومعلومات بالقضايا والمشكلات . وبما

أنا أغلقنا على أنفسنا باب النهي عن المنكر . والأمر بالمعروف .
لا ترجى استجابة الدعاء . وهل يكفى دعاؤنا فى الصلوات ما دمنا آخذين
بأسباب تحول دون استجابة الدعوات ؟ ؟

وقد ورد فى أحاديث كثيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن
الرائى والمرتشى ، وفى بعضها لعن الرائى ، أى الذى يتوسط بينهما ،
ونهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الظلم ، فإنه يحول دون استجابة
الدعاء ، وقال : إن الله يعلى الظالم عسى أن ينتهى عن ظلمه ، ولكنه إذا
بطش بالظالم لم يتركه .

وجاء فى القرآن الكريم :

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى ، وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ
أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

فلننظر إلى الاعتداءات التى يقوم بها الناس بعضهم على بعض
أليس الله يراها ؟ ولا يأخذ أهلها بالمصائب والشدائد ؟ وقد جاء فى
الحديث : « إن الذين يستجاب دعاؤهم ، المضطر والمظلوم ، وإن كان
فاجراً ، وفى رواية : وإن كان كافراً .

وورد فى الحديث عن على رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « يقول الله : اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد ناصراً
غيرى ، — رواه الطبرانى — وقد قال الشاعر الفارسى ما معناه : اتق

دعاء المظلوم فإنه لا يدعو دعاء الا وتتبادر إليه الاستجابة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء » — رواه الطبراني — ولا غرابة فيما إذا كثرت دعوات المظلومين ، وتزايدت أن تنصرف رحمة الله عن أهل الأرض ، وتنزل عليهم الصواعق ، وتحيط بهم الكوارث ، فإن دعوة المظلوم لا ترد ، كما مر آنفاً ، وكما روى ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فقال : « اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » — رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى —

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال أمتى بخير ، ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب » — رواه أحمد —

وبصرف النظر عن المراحل السرية . لا نجد أى مدينة تخلو عن الفواحش ، وحيث لا تمارس الفاحشة جهاراً ولا تكثر فيها أولاد الزنا ، حتى يضطر المسئولون فى البلدية إلى إنشاء محاضن خاصة بهم ، وقد أُنذِر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بنزول عذاب الله حيث تظهر الفاحشة ويكثر الزنا ، والربا ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » — رواه الحاكم —

يجب أن نقف هنا وقفة المتأمل ودارس الأوضاع . لى ندرك فداحة هذا الخطر المحدق بنا ، فكم من رجال يبتلون بهذه المعاصى

ويصابون بهذه الأدواء التي تؤدي إلى نتائج وخيمة جدا . تلك التي أنذر بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي نعاني منها اليوم شيئا كثيرا .

وورد في روايات عديدة : أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو صورة ، وعن أبي وائل قال : غزوت مع عمر رضى الله عنه الشام ، فزلنا منزلا ، فجاء دهقان يستل على أمير المؤمنين ، حتى أتاه ، فلما رأى الدهقان عمر سجد ، فقال عمر : ما هذا السجود ؟ فقال : هكذا نفعل بالملوك ، فقال عمر : أسجد لربك الذى خلقك ، فقال : يا أمير المؤمنين إني قد صنعت لك طعاما فأتني ، قال : فقال عمر : هل في بيتك من تصاوير العجم ؟ قال نعم ! قال : لا حاجة لنا في بيتك ، ولكن انطلق فابعث لنا بلون من الطعام ولا تزدنا عليه ، قال : فانطلق فبعث إليه بطعام فأكل منه — رواه الحاكم —

إن نظرة واحدة على بيوت الناس اليوم تكشف لنا أن تزيينها لا يتم إلا بالصور ، من غير أن يتجرا أحد من المشايخ أو العلماء أن يتفوه بكلمة ضدها ، فما بالنا نخلق علينا أبواب الرحمة ، ونستدعى أسباب الشقاء والعذاب ، ثم نشكو ونصرخ حينما تغشنا المصائب والمشكلات ، فبينما كان سلفنا الصالح لم يرضوا بالدخول في بيت فيه صورة ، نحن نرحب بكل صورة ونعلقها في بيوتنا للزينة والجمال ، أقرأوا الحديث التالي واستعرضوا الأحوال التي يرضى بها المسلمون ، وإعراضهم المدهش عن تعاليم دينهم ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ما طلعت شمس قط إلا

بعث بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس ! هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آت شمس قط إلا بعث ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا ، — رواه أحمد بإسناد صحيح واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه .

ينبغي أن نفكر فيما يدخره الناس من أموال بالبخل والشح ، ولا ينفقون ذلك ، لا في سبيل الله ولا في سبيل راحتهم ، كيف أنهم يؤخذون بأنواع المشكلات والبلايا التي تكلفهم نفقات باهظة ، وقد تعثر بهم الأمراض المنوعة التي تفتى معظم أموالهم المدخرة ، وقد يكون الولد خلفا ينثرها من غير رفق ولا هوادة ، حتى ينفد كل ما جمعه من الثراء والأموال ، هذه أمور ليست من الافتراضات التي يصنعها الإنسان ، بل إنها حقائق واقعة ، يواجهها الناس كثيراً في الحياة ، وقد ورد في أحاديث متعددة أن الإنسان يعتقد أن ماله ليس إلا لنفسه على أنه لا يتمتع به في أكثر الأحيان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول العبد : مالي ! مالي ! وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » — رواه مسلم .

وجاء في رواية عن علي رضي الله عنه أنه قال : إن فضل مالك ليس إلا لغيرك وأنت خازنه ، وهناك أحاديث كثيرة تحتوى على هذا المعنى ، وقال الله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ).

يقول ابن عباس رضى الله عنه : العفو ما يتوفر عن الأهل والأولاد . ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن نفكر فيما يدل إليه الإسلام من طرق « مكافحة الفقر ، الذى ينال لدى الدول المتخلفة أهمية كبرى ، وتعتمد عليه في استلفات أنظار الشعب ، وكسب إقبال الجماهير وما أعظم الفرق بين رجل يؤمر أن لا يدخر عنده أكثر مما يحتاج إليه ، وبين رجل يبحث على أن لا يدخر عنده أكثر من حاجته ، وينفق على الفقراء ما يفيض عنها برضاه ، فإن الأول ظلم محض ، والآخر خير خالص ، وفي الأول كبت لحرية الكسب ، وتثييط الهمم ، وتعطيل النشاط ، وفي الثاني تشجيع على كسب ما أمكن ، وبذل الجهود في المسكاسب والخيرات ، ثم الإنفاق على الفقراء والمساكين وأصحاب الحوائج .

ولا يختص الترغيب في الإنفاق بفضل المال الذى يتوفر عن الحاجة ، بل يستحسن جداً صرف النظر عن المطالب ، وإيثار الغير على النفس ، فقد قال القرآن في مدح الأنصار :

(يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) .

ولم يكن إثارهم هذا مجرد إعلان وذكور ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم نماذج عملية له ، واتبعه أصحابه رضى الله عنهم في هذه الأسوة بالعمل ، تشهد بذلك سيرهم ، وتزخر كتب الزهد والرقائق بهذا

الموضوع ، وإفنى لا أريد في هذه المناسبة أن أخوض في التفاصيل ،
ولأنما أريد الإشارة فقط إلى أن المشكلات والعوائق التي نبتلى بها ليست
إلا من كسب أيدينا —

وقد دلنا النبي صلى الله عليه وسلم على أسباب المصائب والنكبات
التي لا مراء فيها ، كما وصف لنا علاجها أيضاً ، ولا أصدق بما جاء به
النبي عليه الصلاة والسلام وحدثه سواء آمن به أحد أم لم يؤمن ، وقد
قال عليه السلام : « لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ، وقال أيضاً : « وأيم الله
لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء ، — جمع الفوائد —
فلم يترك صلى الله عليه وسلم جزءاً من الأجزاء ، ولا ركناً من الأركان
لحياة الإنسان إلا وقد حدث عنه وأشار إليه ، يتحدث عن الفتن فيقول :
« بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى
كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا ، —
المشكاة .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس ! توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ،
وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم
بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ، ترزقوا ، وتنصروا ،
وتجبروا ، — رواه ابن ماجه — وجاء في رواية أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « ما نقص مال من صدقة ، ولا عفا رجل عن مظلمة

إلا زاده الله بها عزا ، فاعفوا يعزكم الله ، ولا ففتح رجل على نفسه باب المسألة إلا ففتح الله عليه باب فقر ، — رواها في المعجم الصغير .

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أبغض المسلمون علماءهم ، وأظهروا عمارة أسواقهم ، وتناحروا على جمع الدراهم ، رماهم الله عز وجل بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاية الأحكام ، والصولة من العدو ، — رواه الحاكم — ، وعنه أيضا قال : « جزاء المعصية الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والنقص في اللذة ، — تاريخ الخلفاء — . وعن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين ، ولم يعبس في وجهي . . . ثم قال : يا بني ! أسبغ الوضوء ، يزد في عمرك ويحبك حافظك ، ثم قال لي : يا بني ! إن قدرت أن تجعل من صلاتك في بيتك شيئا ، فافعل ، فإنه يكثر خير بيتك ، ثم قال لي : يا بني ! إذا دخلت على أهلك فسلم ، يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك ، — رواه الطبراني في المعجم الصغير .

كل هذه الروايات تشير إلى أن المعاصي وكثرة الذنوب إذا كانت تسبب النكبات والحوادث ، وتصنع المشكلات والعراقيل ، كانت الطاعة لله ، والعبادة له ، والعمل بتعاليمه ، سببا كبيرا لسعادة المرء ، وكفيلة له بالنجاح في الدنيا والآخرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم

تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى . وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت
يديك شغلاً ، ولم أسد فقرك ، - رواه في الجامع الصغير برواية أحمد
والترمذى ، وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة .

هذا الحديث القدسي وما أشبهه من الروايات يشير إشارة واضحة
إلى أن السعادة والنجاح يتوقفان على عبادة الله ، ولكن العبادة هي التي
تواجه اليوم كثيراً من الجور والظلم من بين سائر الواجبات الدينية
غيرها ، فالمسلمون اليوم في أغلب الأحوال يغفلون أوقات العبادة وراء
اكتساب الدنيا .

وما دامت هي حالنا ، وزاد انهما كنا في لذاتنا ، كيف لا تتفاقم
الأخطار والمشكلات التي تحدى بنا من كل جانب ، إن المسلمين لن
يتمكنوا من التوصل إلى حل مشكلاتهم بالاستغناء عن الدين ، فقد قرأنا
في الروايات الآنفه الذكر أن الله يعد بالفقر وشغل القلوب بالهموم
إذا لم يتفرغ المرء لعبادته ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن الله تعالى
يقول ما معناه : « إن العباد إذا أطاعوني نزلت عليهم الأمطار ليلاً وهم
نائمون وطلعت لهم الشمس نهراً ، ولا يسمعون صوت الرعد ، » .

ولكن شؤم أعمالنا يحول دون النظام الطبيعي للفصول ، واختلاف
المواسم والطقوس ، فنعانى من قلة الأمطار ، وكثرة الجذوب والمجاعات ،
وغذاب السيول والفيضانات ، بله نزول أمطار الرحمة ، وتأمين الأرواح
والأموال من الخوف والحزن .

ويروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقى بهم ، فلم يسقوا ، حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام ، فقال موسى : يارب ومن هو ؟ حتى نخرجه من بيننا ، فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى أنهاكم عن النسيمة ، وأكون نماماً ! فقال موسى لبني إسرائيل : توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النسيمة ، فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث .

وقال سفيان الثوري : بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين ، حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال ، ليكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام : لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكل ألسنتكم عن الدعاء ، فإنى لا أجيب لكم داعياً ، ولا أرحم لكم باكياً ، حتى تردون المظالم إلى أهلها .

وتزخر كتب التاريخ والحديث بمثل هذه الوقائع والحديث ، كما أن هناك مئات من الروايات التي تحتوى على معنى تأثير الأعمال في الحياة ، وأن الإنسان إذا كان صالحاً في أعماله ، مرضياً في سيرته ، يدرك سعادة الدنيا والآخرة ، أما إذ كانت أعماله غير مرضية ،

فإنما يخسر منافعهما ، ويواجه من الآلام والمصائب ما يشقى به في الحياة .

فإذا كانت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بما تؤمن به ونصده ، فمن الظلم الصريح أن نعرض عنها ، ونلقى بأيدينا إلى التهلكة ، ونستحق أصناف العذاب والمصائب ، ثم نشكو من ضعف المسلمين ومحنهم ، إن مثلنا كمثل مريض ينطلق بطنه ، ولكنه عوضاً عن أن يستعمل دواء يكافح المرض يداويه بدواء الإسهال . إننا نخاف بطش الحكومات ، ونعاني من اضطهاد الدول ، ولكننا لا نفكر فيما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « كما تكفرون كذلك يؤمر عليكم ، فإن كننا نريد أن يؤمر علينا رجال صالحون يجب علينا أن نقبل على الأعمال الصالحات ، ولا نبغى عنها عوضاً . »

ففي حديث آخر :

عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول : أنا الله ، لا إله إلا أنا ، مالك الملوك ، ومالك الملوك ، قلوب الملوك في يدي ، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة ، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم بالسخط والنقمة ، فساموهم سوء العذاب ، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع ، كي أكيفكم ملوككم ، — رواه أبو نعيم في الحلية ، كذا في المشكاة ، وفي

«مجمع الزوائد» برواية الطبراني . وفي الدر المنثور : أخرج ابن أبي شيبة عن مالك بن مغول ، قال : في زبور داود مكتوب : إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فذكر معناه —

وتتضمن روايات عديدة هذا المعنى ، وفي الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا » . وقال الله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

— سورة الأنعام —

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : حدث أن موسى أو عيسى قال : يارب ! ما علامة رضاك عن خلقك ؟ قال : أن أنزل عليهم الغيث إبان زرعهم ، وأحبسه إبان حصادهم ، وأجعل أمورهم إلى حلوائهم ، وفيئهم في أيدي سمحائهم ، قال : يارب ! فما علامة السخط ؟ قال : أن أنزل عليهم الغيث إبان حصادهم ، وأحبسه إبان زرعهم ، وأجعل أمورهم إلى سفهائهم ، وفيئهم في أيدي بخلائهم . وجاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر » ، أو ليولين الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم ، ، فالذين ينتظرون من خيارهم وصلحائهم دعاء ، أو يرون أن دعاءهم لا يستجاب لهم ، لا يفغى أن يفوتهم التفكير فيما إذا كانوا منقطعى الصلة بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد ورد في حديث آخر :

« وإذا أراد الله بقوم خيراً أولى عليهم حلماءهم ، وقضى بينهم علماءؤهم ، وجعل المال في سمحاتهم ، وإذا أراد بقوم شراً أولى عليهم سفهاءهم ، وقضى بينهم جهالهم ، وجعل المال في بخلائهم — كذا في الجامع برواية الديلمي ، ورقم له بالضعف — وفي رواية : « إن الله تعالى إذا غضب على أمة لم ينزل بها عذاب خسف ولا مسخ ، غلت أسعارها ، ويحبس عنها أمطارها ، ويلى عليها أشرارها » .

كذا في الجامع برواية ابن عساكر عن علي رضي الله عنه ، ورقم له بالضعف ، ولكن رأيت أن الحديث له طرق عديدة بأسانيد شتى ، وتأيد بقوله تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّيْ بَعْضَ الظَّالِمِيْنَ بَعْضًا يَّمَا كَانُوا يَكْسِبُوْنَ) .

على ما ورد تفسيره في عدة آثار من الدر المنثور ، وغيره ، وفي مجمع الزوائد عن جابر أن الله عز وجل يقول : أنتقم من أغضب بمن أغضب ثم أھير كلا إلى النار ، رواه الطبرانی في الأوسط ، وفيه أحمد بن بكر الباسي ضعيف .

وجاء في حديث : « لاتسبوا الأئمة ، وادعوا الله لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم لكم صلاح ، — كذا في المجمع ، وفي الجامع برواية الطبرانی عن أبي أمامة — وفي حديث آخر : « لاتشغلوا قلوبكم بسبب

الملوك ، ولكن تقربوا إلى الله بالدعاء لهم ، يعطف الله قلوبهم عليكم .
 — كذا في الجامع برواية ابن النجار عن عائشة رضى الله عنها — وقال
 مكى بن إبراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة ،
 فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه ، وابن عون ساكت ، فقالوا : يا ابن عون
 إنما تذكره لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من
 صهيقتي لا إله إلا الله أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلاناً —
 إحياء العلوم ، للغزالي .

ويروى أن رجلاً جعل يدعو على حجاج بن يوسف أمام رجل
 صالح ، فقال له : لا تفعل ، فإن ما يقع الآن إنما هو من نتائج أعمالك
 وأخاف أن حجاجاً إذا عزل أو يموت يولى عليك القردة والخنازير ،
 أما القول السائر : « أعمالكم عمالكم » ، فضرب المثل ، وقيل : إنه حديث
 والمعنى أن ولايتكم يكونون بحسب أعمالكم ، وعن واثلة بن الأسقع
 رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اتقى الله
 أهاب الله منه كل شيء ، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء » .

إننى لا أريد أن ذكر هذه الروايات استقصاءها ، وإنما ذكرتها
 كشهادة على أن النكبات التى تطرق أبوابهم وتلم بهم ، ليست عفواً ،
 بل إنهم هم الذين مهدوا لها الطريق ، وفتحوا لها الأبواب ، بحيدهم عن
 الصراط القويم ، وانحرفهم عن دينهم وأخلاقهم ، وأعمالهم التى لا تتفق
 وشأنهم ، وقد سبقت الإشارة فى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم ،

وفي كتب الحديث إلى أن المعاصي هي التي تجر الشقاء والنقمة من الله تعالى ، وأن الأعمال الصالحة ذريعة للصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ، كما جاء التصريح بأن المعصية إذا كانت من نوع كذا تسبب النكبات والمصائب من نوعها أيضاً ، وكذلك الطاعة الخاصة تمهد الطرق إلى ما يشبهها من الأجر والثواب .

إننا نشكو الحوادث والنوازل ولا نفكر أبداً فيما يجز هـذه الحوادث إلينا ، ويسبب تلك النوازل لنا ، بل ونرجو على ذلك أن نكرم بالجوائز ، ونعطى الأجر والثواب في الدنيا ، وإذا أراد أحد أن ينصح لنا وينبها على هـذا الخطأ الذي يصدر منا ، أخذناه بالعقوبة وطردها من المجتمع ، فليس مثلنا إلا كمثل المريض الذي يشكو الآلام والمرض ، ولا يمتنع عما يسبب له الآلام ويزيدها ، وكما وصف له الطبيب ما يستعمله من الأدوية رفضها ، وسفهه .

وعما يبعث الحيرة والاستغراب الشديدين أنما نرى الناس لا يتلکأون أبداً إذا نبهوا على خطر أو خوف أن يهتموا بإزالته ، والابتعاد عنه ، والابتعاد عنه ، بكل ما يستطيعون من وسائل وإمكانات ؛ ولكن الناس أنفسهم لا يعيرون أهمية لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولا يعتنون بالأخطار التي نبه عليها وصرح بها في أقواله وأحاديثه ، ولا يهتمون بما بين من النافع والضار من أعمال وأمور في الحياة ، وذلك بالرغم مما ندعيه نحن المسلمين من حب الله ورسوله ، والفداء في سبيله .

إذا نشر بلاغ رسمي من الحكومة ينص على أن إلقاء الخطاب إذا كان من نوع كذا جريمة يعاقب عليها المرء بسجن عشرة أعوام ، يحذر كثير من الخطباء الأقوياء ، والكتاب الشجعان ، من أن تبدر منهم كلمة يستحقون بها العقوبة ، فيأخذون بالحيلة الدقيقة في كلامهم ، أما إذا أعلن الملك الكبير وصرح الله سبحانه بتحريم الربا مثلاً ، ويؤذن المرابين بالحرب — ويؤذن لمن آذى ولياً من أوليائه بالحرب أيضاً — ويلعن أصحاب الربا وشاربي الخمر ، فكم من الناس يبالون بهذا البلاغ العظيم ؟ ويفكرون فيما يصيبهم من النكبات والنوازل إذا لم يمتثلوا أمره ، يجب أن يفكر كل إنسان فيما يقوم به نحو أوامر الله وأحكامه ، إننا إذا كنا لا نرفض ما حرمه الله ، ولا ننتهي عما نهى عنه ، فلا بد من أن نتظر عقاب الله ، ونستعد لمحاربة الله ، واحتمال لعنته ، ومواجهة النكبات والشدائد التي تنزل بنا .

وقد يستشكل بعض الناس من الخاصة ، فضلاً عن العامة ، أن الحسنات والسيئات إذا كانت تحمل نفعاً وضراً للمسلمين ، فما بالها ليست كذلك للكافرين ، لأن النفع والضرر لا يتغيران بتغير الأشخاص والرجال ، غير أننا نرى الكافرين ينعمون في الدنيا ، ويتمتعون بالذات والرفاهية ، من غير أن يمسهم شيء من أضرار أعمالهم السيئة ، بالعكس من المسلمين الذين ليسوا كذلك ، وقد جرّ هذا الاستشكال بعض الجهال إلى إنكار النصوص والأحاديث ،

واعتبروا مقياس النجاح والسعادة في الدنيا الأمور التي وجدوها في الكافرين ، ولا شك أن منشأ هذا الإشكال إنما هو الجهل بتعاليم الإسلام ، والإعراض عنها ، فلم يترك النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه أى مدخل للشك والارتياب ، ولكن الغفلة بلغت بنا إلى حيث لا نفهم فيه الحقيقة .

ورد في الحديث الشريف : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى عليها في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيقطع بحسناته في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً ، — كذا في الجامع الصغير برواية مسلم وأحمد عن أنس . ورقم له بالصحة — وفي رواية أخرى : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ، — كذا في الجامع برواية أنس ، وعبد الله ابن مغفل ، وعمار بن ياسر ، وأبي هريرة ، وعزاهم إلى المخرجين ، ورقم له بالصحة — .

وقد وردت روايات عديدة في معنى أن الله سبحانه يعجل للكافر مشوبة أعماله الحسنة في الدنيا ، وبما أنه لا ينال في الآخرة أى ثواب وأجر ، يجزى على حسناته التي تصدر منه في الدنيا ، ويعيش في هناء ورفاهية أكثر الأحيان ، أما المؤمن فإن مركز جزائه ومشوبته هي الآخرة ، فيكفر الله عن سيئاته في الدنيا بابتلائه في الشدة

والضيق . وكلما زادت سيئاته وكثرت معصيته زاد شقاءً في الدنيا ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة ، عذابها في الدنيا ، الفتن والزلازل والقتل ، — رواه أبو داود .

وهنا يشكل على بعض دارسي التاريخ أن بعض الأمم الماضية لم تؤخذ بالعقاب ما دامت مصابة بالمعاصي ، ومنطلقة عن حدود الدين ، ولكنها لما امتنعت عن المعاصي والمنكرات ، وثابت إلى الله ، أخذت بالعذاب ، فما السبب في ذلك ؟ والجواب هو ما أسلفنا في السطور الماضية ، وقد يجاب عليه أيضا بأنها خرجت عن حظيرة الدين ، ومست حدود الكفر ، واستغنت عن الله ، فاستغنى الله عنها كذلك ، ولكنها حينما اهتدت وثابت إلى الرشd والصواب ، ابتلاها في الدنيا تكفيراً عن سيئاتها ، ووقاه لها من عذاب الآخرة . شأن المرض الذي يتعدى حدود الجراحة ، فلا تجرى عليه عملية الجراحة ولكن الطبيب إذا رجا أن الجراحة تنفع المريض يقوم بها .

انظر إلى معيشة النبي صلى الله عليه وسلم واستغنائه عن الدنيا ، يتحدث عنها عمر رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه قرأش ، قد أثر الرمال بجنبه ، متكئاً على وسادة من آدم حشوها ليف ، رفعت بصرى في بيته ، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة ،

فقلت يا رسول الله ! أَدع الله فليوسع على أمتك ، فإن فارساً والروم قد وسع عليهم ، وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً ، فقال : « أو في ذلك أنت يا ابن الخطاب ؟ إن أولئك قوم عجّلوا طيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت : يا رسول الله ! استغفر لي ، — رواه البخاري .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : لولا أن يجزع عبدى المؤمن لعصبت الكافر عصابة من حديد فلا يشتكى شيئاً . ولصيت عليه الدنيا صباً . »

وذلك كله لأن الدنيا لا تعدل جناح بعوضة عند الله ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل جناح بعوضة عند الله ما سقى كافراً منها شربة ماء . » وفي حديث آخر : عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدى أسك ميت ، قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : « ما نحب أنه لنا بشيء . » قال : « فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم . »

في هذه الأحاديث دليل على أن الدنيا لا قيمة لها عند الله تعالى ، وأن الكفار لا يبتغون إلا الدنيا وحدها ، فيجزئهم الله على ما يصدر منهم من بعض الحسنات في دنياهم ، والمسلم المؤمن يستحق ثواب الآخرة ، ومهما كان مبتلى بالمعاصي والسيئات ، لا بد له من أن ينال

ثواب الآخرة ، ويتمتع بنعيم الجنة ، بعد ما يجتاز مراحل العقوبة في الدنيا ، ويقاسى فيها من آلام ومحن ، وذلك هو ما يبشر له بالخير في الآخرة ، كما جاء في الحديث : عن عقبه بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) .
 — رواه أحمد —

وجاء في حديث آخر :

عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح ، تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتى أجله ، ومثل المنافق كمثل الأرزة المجذبة التي لا يصيبها شيء ، حتى يكون انجعافها مرة واحدة » - متفق عليه - وهناك نصوص كثيرة كلها تدل على أن السبب في سعادة الكفار في الدنيا إنما هو الإملاء من الله سبحانه وتعالى ، وجزاء لأعمالهم الحسنة في الدنيا ، فكل كافر يقوم بالعمل الطيب يجزى على ما فعل ، ولا يؤاخذ على كفره في الدنيا ، أما المسلم فلا يترك حتى في الصغائر من ذنوبه ، إلا ويؤاخذ عليه ، فكلما زاد المسلمون ذنوباً ومعاصى تحيط بهم النكبات والمشكلات ، فلا سبيل لذهابهم منها إلا أن يجتنبوا الذنوب والسيئات ،

من الأعمال ، ويأمروا غيرهم بذلك ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :
 « لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه : وماله ، وولده ، حتى يلتقي الله
 وما عليه من خطيئة » - رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح - وأيضاً
 عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد
 الله بعبد الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد الشر
 أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة » - رواه الترمذى .

أما الكفار فإنما يعاقبون في الدنيا بكثرة ظلمهم ، أو إسرافهم في
 الفسق والفجور ، أو اعتدائهم على الأنبياء ، فإذا فعلوا لا يملئ لهم الله ،
 بل يعجل لهم العقوبة التي تعم غيرهم ، وقصص الأمم البائدة التي ذكرها
 القرآن كلها شاهد عدل على ذلك ، كما أن تاريخ انقراض الدول يدل على
 أن الظلم حينئذ كثر وتعدى الحدود نصر الله المظلوم ، وأيده بالروح
 والملائكة ، ويستجيب دعاءه ولو كان كافراً ، ولذلك فإن الحكام
 والأمراء ، والوزراء والأغنياء : الذين يظلمون الناس لا يظلمونهم ،
 وإنما يظلمون أنفسهم ، ويمهدون الطريق لشقائهم ، سواء كان ذلك ظلماً
 اجتماعياً أو فردياً ، فإذا أخذهم الله بالويل والنقمة ، لا يجدون ملجأ يلجأون
 إليه ، وما قصة هلاك الأمم وانحطاط الدول إلا تفصيلاً لهذا العنوان .

وهنا لا بد من تنبيه ، وهو أن الله سبحانه خالق الأسباب ،
 وقد فرق بين المؤمن والكافر في تأثير هذه الأسباب ، فلا ينبغي
 أن نعتقد أن الذي ينفع الكافر ينفع المؤمن ، وأن ما يضره يضر المؤمن ،

أيضاً ، فإن مثل هذا الاعتقاد جهل بالدين ، وعدم وقوف على كلام الله ورسوله .

ومن ثم يجب أن نفهم جيداً أن المركز الأصلي لعقوبة الكفار هي الآخرة ، وقد يظهر شيء منها في الدنيا نظراً إلى بعض المصالح ، أما الحسنة التي يؤدونها ، والأعمال الطيبة التي يقومون بها ، فلا بد من أن يلقوا جزاءها من الله رب العالمين في هذه الدنيا ، وذلك لأنهم لا يؤمنون بالآخرة فكيف يترقبونها ، وهم يعللون تأخير الجزاء ، ومن المعقول أن ينالوا عقوبة إنكار الآخرة في الآخرة ، قال الله تعالى :

(وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ)

— سورة السجدة —

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)

— سورة الأحقاف —

وأسوق هنا عدة آيات من القرآن الكريم بما يوضح الموضوع :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ)

— سورة البقرة —

٢ (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ) .

— سورة البقرة —

٣ (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

— سورة البقرة —

٤ (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

— سورة النساء —

٥ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

— سورة الأنعام —

٦ (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) .

— سورة الأنعام —

٧ (تُرِيدُ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)

— سورة الأنفال —

٨ (أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) .

— سورة التوبة —

٩ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ) .

— سورة هود —

١٠ (اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) .

— سورة الرعد —

١١ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ
ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا وَمَنْ أَرَادَ
الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا ، كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا
كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) .

— سورة بني إسرائيل —

١٢ (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

— سورة طه —

١٣ (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ).

— سورة القصص —

١٤ (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ).

— سورة القصص —

١٥ (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

— سورة القصص —

١٦ (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ).

— سورة لقمان وسورة فاطر —

١٧ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) .

— سورة الشورى —

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن تفسير الآية : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) فقال : إن الله تعالى يستوفي جزاء أعمالهم بصحة أبدانهم وإدخال السرور إلى أنفسهم بزيادة الأولاد والأموال ، وإلى ذلك تشير الآية الواردة في سورة بنى إسرائيل :

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ) يعنى أن الله تعالى يعطى من يشاء ما يشاء .

وعن سعيد بن جبير رحمه الله فى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّاتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) قال : يؤتون ثواب ما عملوا فى الدنيا ، وليس لهم فى الآخرة من شىء وعن قتادة رحمه الله فى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَزَيَّاتَهَا) يقول : من كانت الدنيا همه وسدمه ، وطلبتة ونيتة وحاجته ، جازاه الله بحسناته فى الدنيا ، ثم يفضى إلى الآخرة ليس له فيها حسنة ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة .

وعن مجاهد رحمه الله في : (مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)
قال : من عمل للدنيا لا يريد به الله وفاء الله ذلك العمل في الدنيا أجر
ما عمل .

وعن ميمون بن مهران رحمه الله قال : من كان يريد أن يعلم
ما منزلته عند الله فليُنظر في عمله ، فإنه قادم على عمله كائنًا ما كان ،
ولا عمل مؤمن ولا كافر من عمل صالح إلا جزاه الله به ، فأما المؤمن
فيجزيه في الدنيا والآخرة بما شاء ، وأما الكافر فيجزيه في الدنيا —
الدر المشور — .

وقد ورد في تفسير الآية :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)
عن محمد بن كعب قال : يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ، يرى ثوابها
في الدنيا : في نفسه وأهله ، وماله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس
عنده خير ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا من مؤمن ، يرى عقوبته في الدنيا
في نفسه وأهله ، وماله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس عليه شيء .
وعلى ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أمتي هذه مرحومة ، ليس
عليها عذاب في الآخرة ، إنما عذابها في الدنيا ، الفتن والزلازل ، والقتل
والبلايا ، — كذا في الجامع الصغير ورقم له بالصحة — .

كل هذه الروايات دالة على أن هذه الأمة تؤاخذ على خطاياها في

هذه الدنيا رحمة عليها وكفارة من ذنوبها ، فإن لم تكن قد أصيبت
بالبلايا على كثرة ذنوبها وآثامها لكان ذلك نذير خطر كبير بالنظر
إلى معادها ومصيرها ، فالعلاج الوحيد لتوقى هذه الأمة المحمدية من
المصائب والحوادث ، ومواجهة النكبات والخسائر ، إنما هو تركيز
عنايتها بالاحتراس من المعاصي ، فإذا ما صدر منها شيء من الذنوب
تندم عليه ، وتستغفر الله منه وتتوب إليه ، أما أن ترتع في مراتع
الذنوب والمعاصي ، وترجو السلامة من كل غضبة من الله ، فلا يكون
ذلك ، ولن يكون .

وما دام المسلم يتظاهر بالإسلام ويرتكب المعاصي ، لا ينهض
ولا يعز ، ولكنه إذا انقلب كافراً وقطع صلته بالإسلام ، يستطيع
أن يتدرج في الدنيا إلى مدارج العز والرفاهية ، وينال فيها جزاء كل
الحسنات التي يقوم بها ، فعن سليمان بن عامر رضى الله عنه أنه قال :
يا رسول الله ! إن أبى كان يصل الرحم ، ويفى بالذمة ، ويكرم
الضيف ، قال : « مات قبل الإسلام ؟ » قال : نعم ! قال : « د لن ينفعه
ذلك ، ولكنها تكون في عقبه ، فلن تحزوا أبداً ، ولن تذلوا أبداً .
ولن تفتقروا أبداً . »

هذا الحديث يرد على سؤال : أن الكافر بالرغم من سوء أعماله
يعيش في الدنيا في بحبوحة من العيش والراحة ، لأن والديه قد خلفا
له ثمار أعمالهما الطيبة ، ولا شك في أن هناك نصوصاً كثيرة من

الكتاب والسنة ، تدل على أن مبدأ التقدم والرفاهية ليس أمراً مشاعاً بين الكافر والمسلم ، وقد يشاركان في بعض الأمور ، أما مقياس التقدم للمسلمين فإنما هو تنفيذ الدين كله ، والاحتباس من المعاصي ، فكما كثرت المعاصي كثرت البلايا والنوازل ، ولا ينبغي أن نقيس حياتنا على حياة الكفار الذين لا يصابون بالبلايا رغم صدور السيئات والمنكرات منهم ، بل إنهم يتقدمون في جميع مراحل الحياة ، كما لا ينبغي أن نأمن كل بلية ونازلة ، لأننا إذا فعلنا ذلك نكون قد نادينا المصائب ، أو استحققنا الاستدراج الذي لا تتأخر نقمته ، كما سبق أولاً .

ولذلك فإن ارتجاء المسلمين السعادة مع اقتراف السيئات والمعاصي يرادف حرمانهم إياها ، كما أن النظر إلى الكفار واقتفاء خطاهم طمعاً في المنافع ، وحرصاً على الرفاهية التي يتمتعون بها ، ليس ما يسمى بالرفاحة فقط ، بل إنه يمهّد الطريق إلى الخيبة والإخفاق .

كان من عادة الفرس والروم في الحروب أن الفريق الغالب كان يقطع أعناق رؤساء الفريق المغلوب ، ويحمل رؤسهم إلى الأمير والحاكم ، تظاهراً بالفخر والغلبة ، فلما تحارب المسلمون في عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وانتصروا على أعدائهم فعلوا معهم مثل ما كانوا يفعلون ، وحملوا رأس أحد البطارقة الرومية مع عقبة بن عامر رضي الله عنه إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

قلما بلغه أنكر ذلك أشد إنكار ، فقال له عقبة بن عامر : إنهم يصنعون بنا ، فقال : أتستنون بفارس والروم ؟ لا يحمل إلى رأس ، إنما يكفي الكتاب والخبر ، ولو أن الفقهاء أجازوا ذلك نظراً إلى بعض النصوص ، ولكن أيا بكر الصديق رضى الله عنه لم يرض ، وكره الاستدلال بالفرس والروم .

عن طارق بن شهاب قال : خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الشام ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فأتوا على مخاضة ، وعمر على ناقة له ، فنزل عنها ، وخلع خفيه ، فوضعها على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقة ، فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ؟ تخلع خفيك ، وتضعهما على عاتقك ، فتأخذ بزمام ناقة ، وتخوض بها المخاضة ؛ ما يسرنى أن أهل البلد استشفوك ، فقال عمر : أوه ، لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة ! جعلته نكالا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله . الحقيقة أن العز الحقيقي هو ما يمنحه الله ، ومن أكرمه الله بعزه ، لا يبالى بذلة الدنيا وأهلها .

وقد جاء في الحديث ما معناه : أن من يطلب العزة في الناس بمعصية الله ، ينقلب مادحوه ذامين له . فلم يعد للمسلمين طريق نحو السعادة والتقدم والعزة ، ولم يبق لهم طريق لتحقيق غايتهم من

الحياة ، إلا الحصول على رضا الله ، والعمل بمرضاته ، ومن العجب العجائب أن ينطلق المسلمون إلى تقليد الكفار والمشركين ، والأكل من فئات موأندهم ، ليحققوا لهم بعض النفع ، تاركين كتاب الله وسنة رسوله اللذين يفيضان نوراً وهداية ، ويدعوانهم إلى كل خير وتقدم وسعادة .

أليس هذا وقاحة ومقاطعة لله ولرسوله ؟ ! إن مثلهم في ذلك كمثل المريض الذى يعيش مع طبيب كبير يعتبر مرجع الناس ، ويقصده المرضى من كل مكان ، ولكنه لا يراجع الطبيب فى أمره ، بل يعتمد على متطبب متطفل لا يؤممه المرضى ، ولا يشفيهم بعلاجه .

عن جابر رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسخة من التوراة فقال : يا رسول الله ! هذه نسخة من التوراة ، فسكنت فجعل يقرأ ، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغير ، فقال أبو بكر : ثكلت الثواكل ، أما ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أعوذ بالله من غضب الله ورسوله ، رضيتا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : د والذى نفس محمد بيده ! لو بدا لكم موسى فاتبعتموه ، وتركتمونى ، لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حياً وأدرك نبوتى لاتبعنى .

لقد كان غضب النبي صلى الله عليه وسلم حقاً ، لأن المسلم ما لم يكن محيطاً بالكتاب والسنة ، وما فيهما من أحكام ونصوص ، لا يستطيع أن يستفيد من كتاب اختلط فيه الباطل مع الحق ، أما من كان عنده علم كاف بالدين ، وهو يميز الحق عن الباطل ، فلا بأس عليه أن يقرأ كتاباً ليس فيه حق محض ، لأنه لا يكاد يضل الطريق السوى ، لما عنده علم من الكتاب والسنة ، والتوراة عندما كان فيها من الأحكام ما نسخ ، وتناوله اليهود بالتحريف ، أبدى النبي صلى الله عليه وسلم غضبه على قراءته . خوفاً من أن يلتبس الأمر ، ويؤدي إلى الضلال .

وقال ابن سيرين رحمه الله : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

وعلى ذلك شدد العلماء والمشايخ النهى عن صحبة رجال لا تستقيم سيرتهم الدينية ، وعن استماع خطبهم وقراءة كتاباتهم لكي يتقى تأثيرهم السيئ ، وما جاء في المثل : انظروا إلى ما قال ، ولا تنظروا إلى من قال ، فهو صحيح . يؤيد الذي جاء في الحديث بألفاظ مختلفة ، الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها ، ولكن ذلك لا يأتي ما لم يكن المرء يتمتع بالتمييز بين الحق والباطل ، ويكون ناضج العقل خبيراً بقواعد الدين ، حتى يستطيع أن يقول : هذا حق ، وهذا باطل ، هذا صواب ، وذاك معارض للكتاب والسنة .

والواقع أن صلاح المسلمين ونجاحهم ليس إلا في اتباع الدين كاملاً ، واقتداء أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالحين مهما شوه المشوهون صورة الإسلام ، ورماء الكفار والمشركون بالرهينة والتعصب ، والتاريخ الإسلامى الناصع الذى لا غبار عليه البتة يشير إلى أن الإسلام هو الذى أنقذ العالم من حيرة الضلال والانهار ، وأضفى عليه حياة جديدة ، وقداسا وطهراً ، وأن المسلمين هم الذين حاربوا التقاليد الباطلة والعادات الوحشية ، وأعادوا كل شيء إلى نصابه ، وملاؤوا العالم خيراً وعدلاً ، واستقامة ومعرفة بالحقوق ، فلم يكن يوجد من يرتكب السيئات . ويخالف القوانين الإسلامية العادلة ، حتى قالوا : لم يكن أحد يترك الصلاة إلا منافق ظاهر نفاقه ، وكلما حز بهم أمر أو مصيبة فزعوا إلى الصلاة .

يقول أبو الدرداء رضى الله عنه : إذا هبت ريح عاصفة فزع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، ودخل المسجد ، ولم يخرج ما لم تنته ، وقد تحدث عديد من الصحابة رضى الله عنهم بطرق مختلفة عادة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه ، وفزعه إلى الصلاة كلما حزبه أمر كما روى أحد الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأنبياء السابقين كانوا يفعلون ذلك ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتبعون أيضاً النبى عليه الصلاة والسلام فى ذلك ، وقد كانت الصلاة تحتل عندهم محلاً رفيعاً جداً ، حتى أن سهام الأعداء ما كانت تقطع صلاتهم ، وما كانوا يسمعون

صوت الأذان إلا ويتركون تجارتهم وأعمالهم ، وقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وجه تعليمات عن الصلاة إلى عماله ، وولاية أمور الحكم في عهده ، وأخبرهم بأن الصلاة أهم شيء عندي ، فمن حافظ عليها حافظ على الدين كله ، ومن أضاعها أضاع الدين كله .

وعندما بعث أبو بكر الصديق رضى الله عنه خالد بن الوليد إلى أهل الردة ، أمره بأن يقاتلهم على خمس خصال ، فمن ترك واحدة من الخمس قاتله : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، ولما بعث عتبة بن غزوان لقتال الفرس أوصاه بالتقوى ، فقال : اتق الله ما استطعت ، واحكم بالعدل ، وصل الصلاة لميقاتها ، وأكثر ذكر الله .

كانت واقعة أجنادين الشهيرة في عهد أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، حارب فيها المسلمون ضد الروم ، فلما تراءى العسكران بعث قائد الروم رجلاً عربياً - كعين له - فقال له : ادخل في هؤلاء القوم ، فأقم فيهم يوماً وليلة ، ثم ائتني بخبرهم ، فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر عليه ، فأقام فيهم يوماً وليلة ، ثم أتاه فقال له : ما وراءك ؟ فقال له : بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ، ولو زنى لرجم ، لإقامة الحق فيهم .

وقد وردت في كتب الحديث قصة امرأة مخزومية سرت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أسامة ابن زيد يستشفعون له ، فلما كلبه أسامة بن زيد فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أتكلمني في حد من حدود الله ، قال أسامة : استغفر الله لي ! فلما كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ! فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها . »

هذا ! وتزخر كتب الحديث بمثل هذه القصص التي تملأ قلوب الكفار رعباً ودهشة من المسلمين ، كما أن القائد الرومي حينما سمع مقالة الرجل العربي الذي بعثه عيناً إلى جيوش المسلمين ، قال : لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقائهم على ظهرها .

أسر المسلمون رومياً فانفلت من إيساره وفر ، فلما وصل إلى هرقل ، سأله عن خبر المسلمين وقال له : أخبرني عن أحوالهم بما تتمثل لي سيرتهم تماماً ، فقال له : إنهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار ، ولا يأخذون من أهل النعمة شيئاً بغير مقابل ، يلتقون فيما بينهم بالسلام . فقال هرقل : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فإنهم سيملكون موضع قدمي هاتين .

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر رضي الله عنه يخبره بما

جرى في حرب أنطاكية : « أما بعد ! فإن هرقل ملك الروم لما بلغ مسيرنا إليه ، ألقى الله الرعب في قلبه ، فتحول ونزل أنطاكية . وكتب أبو بكر رضى الله عنه معه بهذا الكتاب : « أما بعد ! فقد بلغنى كتابك تذكر فيه تحول ملك الروم إلى أنطاكية ، وإلقاء الله الرعب في قلبه من جموع المسلمين ، فإن الله تبارك وتعالى - وله الحمد - قد نصرنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب ، وأيدنا بملائكته السكرام ، وإن ذلك الدين نصرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذى ندعو الناس إليه اليوم . »

لقد كان جيش هرقل كشيافاً يازاء جيش المسلمين ، وأخبر بذلك عمرو بن العاص أبا بكر رضى الله عنهما ، فكتب إليه : « إنكم لا تغلبون بقلة عددكم ، وإنما تغلبون بالمعاصى على كثرة عددكم ، فاحترسوا منها ، وذلك ما جعل المسلمين غالبين على كل شيء من البر والبحر ، والحيوانات من السباع والطيور عدا الإنسان ، ويزخر التاريخ بقصص انتصاراتهم التى تحوج إلى أسفار . »

ذات مرة احتاج المسلمون إلى نصب معسكرهم في إحدى غابات أفريقيا التى كانت تموج بالسباع والحشرات السامة ، فوصل عقبة بن عامر قائد الجيش إلى ناحية ببعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن قائلاً : أيها الحشرات والسباع ! نحن أصحاب رسول الله ، فارجعوا ، فإننا نازلون ، فن وجدناه بعد قتلناه . وما هى إلا لمحات قليلة إذ عم هذا الخبر في أوساط هذه الحيوانات ، وارتجلت كلها تحمل أولادها .

وعن ابن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر ، فانطلق هارباً يلتمس الجيش ،
فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث ! أنا مولى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، كان من أمرى كيت وكيت ، فأقبل الأسد له بصبصة ، حتى
قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتاً أهوى إليه ، ثم أقبل يمشى إلى جنبه ، حتى
بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد .

ولما حان الزحف على المدائن في حرب الفرس كانت دجلة تعترض
الطريق ، فأمر الكفار بنقل السفن منها لكي لا يعبرها المسلمون . وكانت
أيام المطر ودجلة فائضة ، فأمر قائد الجيش سعد الفرس أن يخوضوا
النهر بأفراسهم ، فكانوا يمشون في النهر مثنى تسبح أفراسهم ، وكان سلمان
رفيق سعد رضى الله عنهما في السباحة ، فكان سعد رضى الله عنه يكرر
قوله : والله . لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزم من عدوه ،
ما لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

وبعث أبو بكر الصديق رضى الله عنه العلاء بن الحضرمي في حرب
المرتدين إلى البحرين ، فسلكوا مفازة ، وعطشوا عطشاً شديداً ، حتى
خافوا الهلاك ، فنزل وصلى ركعتين ، ثم قال : يا حليم ، يا عليم ، يا على
يا عظيم ، اسقنا ! فجاءت سحابة كأنها جناح طائر ، فقحقت عليهم
وأمرت ، حتى ملئوا الآنية وسقوا الركاب .

وقال أبو هريرة رضى الله وكان في هذا اليعث : ثم انطلقنا حتى أتينا
دارين ، والبحر بيننا وبينهم ، وفي رواية أتينا على خليج من البحر

ما خيض فيه قبل ذلك اليوم ، ولا خيض بعد ، فلم نجد سفناً ، وكان
المرتدون قد أحرقوا السفن ، فصلى ركعتين ، ثم قال : يا حليم ، يا عليم
يا على ، يا عظيم ، أجزنا ! ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال : جوزوا
بسم الله ، قال أبو هريرة : فشيننا على الماء ، فوالله ما ابتل لنا قدم ،
ولا خف : ولا حافر ، وكان الجيش أربعة آلاف ، ويروى أنه كان
العلاء بن الحضرمي ، ومن كان معه حواراً إلى الله تعالى في خوض هذا
البحر ، فأجاب الله دعاءهم ، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر وكان
شاهداً معهم :

ألم تر أن الله ذلل بحره
وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعانا الذي شق البحار فجاءنا
بأعظم من فلق البحار الأوائل

وهناك وقائع كثيرة لعبور البحار والأنهار وما شاكلها ، ولكن
هذه القصص - أيها القارئ العزيز - ليست للتسلية والاستمتاع ،
ولا لتزجية الوقت ، بل لأنها مرآة يجب أن نرى فيها صورنا
الكالحة ، فإما من صغير ولا كبير إلا وقد أرشدنا إليه رسولنا العظيم
في أقواله ، وفرق لنا بين سبل الخير والشر ، فلما عمل بها السلف الصالح
نجحوا وفازوا ، ونحن حينئذ لم نقم لها وزناً ، ولا عرفنا قدرها ، ولا أردنا
اتباعه صلى الله عليه وسلم ، وقد خلت قلوبنا من خوف الله ، ذللتنا

وامتهنا ، ولم تتمخض حياتنا بالسعادة والنجاح ، اقرأوا التاريخ الإسلامى تروا كيف كان الخليفة يوصى الجيش وقائده ، ولم كان الجيش حريصاً على تنفيذ وصايا الخليفة ، انظروا كيف أوصى عمر سعداً رضى الله عنهما حينما أرسله إلى العراق وأمره عليها :

« يا سعد بن وهيب ! لا يغرنك من الله أن قيل : خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، فإن الله لا يمحو السىء بالسىء ، ولكن يمحو السىء بالحسن ، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا عليه ، فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين . ولما أراد فراقه قال له : « إنك ستقدم على أمر شديد فالصبر الصبر ! على ما أصابك ونابك ، تجمع خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما طاعة من أطاعه يبعض الدنيا وحب الآخرة . وإنما عصيان من عصاه يحب الدنيا وبعض الآخرة . »

— البداية والنهاية —

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب دنياه أضرب بآخرته ، ومن أحب آخرته أضرب بدنياه فأثروا ما يبقى على ما يفنى ، وقد كان الصحابة رضى الله عنهم قد

تفطنوا لهذه الكلية وعضوا عليها بالنواجذ . والحقيقة أن من آثر
الآخرة على الدنيا ، وتحمل خسائرهما بإزاء الآخرة ، فهو وإن أضر
بدنيته في ظاهر أمره غير أنه ليس ضرراً في الواقع ، فقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم : « من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في
قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيته طلب
الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه ، وشتت عليه أمره ، ولا يأتيه منها
إلا ما كتب له . »

وقد تواترت قصص الصحابة رضى الله عنهم والصالحين من عباد
الله فيما يتصل بالدنيا وإتيانها راغمة إليهم ، وكيف لا يكون ذلك فإن
الدنيا لم تخلق إلا لخدمتهم .

بعث سعد ذات مرة عاصم بن عمر أميراً على قليل من الجيش
لفتح ميسان ، فلما وصل عاصم إذا بالمسلمين قد نفذ ما كان عندهم من
الزاد ، وبحشوا فلم يجدوا ، فلقبهم رجل من أهل فارس كان راعياً
بناحية من إحدى الغابات ، فسأله عن لبن وحمالة من الدواب ،
فكذبهم ، وقال : لا أدري ، وإذا بشور خار في الغابة ، وقال :
كذب عدو الله ، ها نحن . فدخل عاصم الغابة . وجاء بالثيران منها ،
ووزعها على الجيش .

وقال بعض المؤرخين : إن هذه القصة حدثت مع سعد رضى الله
عنه في القادسية ، ولكن لا مانع من أن تكون قد حدثت مع الرجلين

كليهما ، ولما سمع الحجاج بن يوسف الثقفي هذه القصة تعجب منها ، ودعا الذين شهدوها يطلب منهم تصديقها ، فقالوا : إنا سمعنا صوت الثور ، فسألهم عن قول الناس في هذا ، فقالوا : إن الناس كانوا يستدلون بهذه الواقعة على رضا الله سبحانه عن المسلمين ، وأن نصر الله حليفهم ، فقال الحجاج : إن هذا لا يكون إلا إذا كان الجيش كله تقياً ، فقالوا : إنا لا نعلم ماذا كان في قلوب الجيش ، فأما ما رأينا ، فما رأينا قط أزهدي الدنيا منهم ، ولا أشد بغضاً لها ، ليس فيهم جبان ، ولا غال ، ولا غدار .

ولا غرابة فيما إذا كانت البهائم تنطق ، أو تعرض نفسها لخدمة الصالحين من عباده ، فإن نطق البهائم مما تحكى عنه الأحاديث الصحيحة فقد جاء في البخارى وغيره من كتب الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يسوق بقرة إذ أعيا فركبها ، فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، إنما خلقنا لحرارة الأرض ، فقال الناس : سبحان الله ! بقرة تكلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإنى أؤمن به أنا ، وأبو بكر ، وعمر ، وما هما ثم . . . »

وقال : بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأخذها ، فأدركها صاحبها فاستنقذها ، فقال له الذئب : فمن لها يوم السبع ، يوم لا راعى لها غيرى ، فقال الناس : سبحان الله . ذئب يتكلم ،

فقال : أؤمن بها أنا ، وأبو بكر ، وعمر ، وما هما ثم ، - المشكاة ،
باب مناقب أبي بكر وعمر -

تحتوى كتب المعجزات على شيء كثير من مثل هذه الحكايات ،
كما فى الشفاء للقاضى عياض ، فمن شاء فليراجعها ، إن هؤلاء الصالحين
البررة من عباد الله حينما أخلصوا لله ، وتوكلوا عليه ، انقاد لهم
كل شيء ، حتى الحيوانات والبهائم تستجيب لندائهم وتسعى لإسعافهم
ويصدق عليهم المثل « كما تدين تدان » ، إن التاريخ يزخر بذكر حنينهم
نحو الشهادة فى سبيل الله .

يروى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم ضحى بمائة بدنة فى حجة
الوداع ، ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم ينحر البدن طفق يزدلفن
إليه خمس وست بدنات دفعة واحدة ، كل واحدة منها تحب أن يدا بها
صلى الله عليه وسلم ، وعندما نرى فى الدنيا أن صغار الحكام الذين
لا يملكون فى أمرهم شيئاً يساعدون أتباعهم ومحبيهم بكل إمكانياتهم
فكيف لا يحمى الله سبحانه عباده المطيعين ، ويمنع ظهريهم ، وقد وعدهم
بذلك فى كتابه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنَصَّرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) (و) (إِن يَنْصُرْكُمْ
اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ) وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ
مِنْ بَعْدِهِ .

كان الصحابة رضى الله عنهم قد فهموا هذه الحقيقة جيداً ، فكانوا يعيشون فى طاعة الرسول ، والنصر حليفهم فى كل وقت وما أن عثروا وزلوا فى أمر من الأمور إلا واجهوا مشاق ، وابتلوا بمحن ، كما وقع فى معركة أحد ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الرماة بالثبات فى مكانهم على كل حال ، وكاد المسلمون يغلبون على عدوهم ، فلما رأوا أن الغلبة تمت للمسلمين أو تكاد ، ظن بعض أفراد من الرماة أن لا حاجة إلى البقاء فى المكان ، وخرجوا يتعاقبون الكفار ، وقد استنكر أميرهم خصلتهم هذه ، ولما خرجت الرماة من مكانهم ، أوقى المسلمون من قبلهم ، وكذلك اغتر بعض المسلمين يوم حنين بكثرةهم ، فأصيروا بهزيمة وبلاء ، وإلى ذلك أشار القرآن ، فقال :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) .

وفى حرب المرتدين قامت المعركة أولاً مع طليحة الكذاب ، ففر منهم كثير ، وقتل عدد ، وفر طليحة أيضاً ، وتشجع المسلمون ، وارتفعت هممهم . ثم وقع قتال عنيف مع جماعة مسيلية ، قتل فيه آلاف من رجاله واستشهدت جماعة من المسلمين ، وكان خالد بن الوليد قائداً فى هذه المعارك فيقول : إنا لما فرغنا من طليحة الكذاب ، ولم تكن له شوكة

قلت كلمة — والبلاء موكل بالقول — : وما بنو حنيفة ، ما هي إلا كمن
لقينا ، فلقينا قرماً ليسوا يشبهون أحداً ، ولقد صبروا لنا من حين
طلعت الشمس إلى صلاة العصر .

يعنى أنه يتأسف على ما بدر منه ذلك القول ، الذى أدى إلى شدة
المقاومة ، وطول المدة ، وذلك ما جعل الخلفاء الراشدين يؤاخذون
بأدنى شيء ، وينبهون على أقل خطأ ، عندما كان خالد بن الوليد يلى
حرب العراق كتب إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

« أما بعد ، فدع العراق واخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم
فيه ، وامض محتفياً في أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا معك العراق
من اليمامة ، وصحبوك في الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى
تأتى الشام ، فتلقى أبا عبيدة ، ومن معه من المسلمين ، فإذا لقيتم فأنت أمير
الجماعة ! والسلام ، . . . وكان فيما كتب إليه به أن : « سر حتى تأتى جموع
المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت
فإنه لم يشج الجموع بعون الله سبحانه أحد من الناس لإشجائك ، ولم
ينزع الشجاء أحد من الناس نزعك ، فلتهنئك أبا سليمان النعمة .
والحظوة ، فأتهم يتمم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل .
ولإياك أن تدل بعمل . فإن الله تعالى له المن ، وهو ولى الجزاء . . »

لقد كان هؤلاء الناس يهتمون كثيراً بالزجر والتنبيه على أمور

لا تسترعى الانتباه بوجه عام ، وكانوا يؤخذون على المعاصى أشد المؤاخذة .

ذات مرة ألح عمر بن الخطاب رضى الله عنه على عزل خالد ابن الوليد عن قيادة الجيش ، أيام خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى أمر حدث له . ولكن أبى بكر رضى الله عنه لم يرض به ، فلما كانت خلافة عمر رضى الله عنه ، وأجاز خالد أحد الشعراء بجائزة قيمة طلبه عمر رضى الله عنه ، وقد شدت يدها إلى عنقه .

وقد كتب عمر رضى الله عنه مخرجه أول مرة إلى أمراء الأجناد : أن يوافوه بالجالية ليوم سماء لهم فى المجردة ، وأن يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجالية . فكان أول من لقيه يزيد ، ثم أبو عبيدة ، ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير . فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها . وقال : سرع ما لقمتم عن رأيكم ، إياى تستقبلون فى هذا الزى ، وإنما شبعتم منذ سنتين ، سرع ما ندت بكم البطنة ، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم . فقالوا : يا أمير المؤمنين ! إنها بلا مقة ، وإن علينا السلاح . قال : فنعلم إذا . وركب حتى دخل الجالية - تاريخ الطبرى - .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما فتحت ميسان فى أيامه ، ولاها النعمان بن عدى بن فضالة بن عبد العزى بن حزنان بن

عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب ، وكان من
مهاجرة الحبشة — ولم يول عمر أحداً من قومه بنى عدى ولاية قط
عيه — لما كان فى نفسه من صلاحه ، وأراد النعمان امرأته معه على
الخروج إلى ميسان فأبت عليه ، فكتب النعمان إلى زوجته :

ألا هل أتى الحسناء أن حليها

بميسان يسقى فى زجاج وحنم

إذا شئت غنتى دهاقين قرية

وصناجة تجثو على حرف ميسم

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقى

ولا تسقى بالأصغر المشلم

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادى فى الجوسق المهتم

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرُ الذَّنْبِ

وَقَابِلُ التَّوْبِ ، شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أما بعد

فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

تنادى فى الجوسق المهتم

وأيام الله لقد سامني ذلك ! وقد عزلتك ، فلما قدم عليه قال له :
والله ما كان من ذلك شيء ، وما كان إلا فضل من شعر وجدته ،
وما شربتها ، فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً —
معجم البلدان —

انظروا إلى هذه الشدة في أمر الله ، والأخذ بالحيطه على كل خطورة
وفي كل مجال ، فإن ذلك هو السر في ارتفاع هؤلاء الناس إلى منازل
عالية في الدنيا والآخرة ، فلما ظهرت منهم معصية أصحابهم ضررها ، كما
مرت أمثلة ذلك آنفاً ، وكلما كانوا أرفع منزلة كان أخذ الله أشد ، مهما
صدر منهم ذنب حقير ، وهذا عما يعقل ، إذ أن المثل السائر يقول :
« حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد نبه الله سبحانه نبيه العظيم على
ما صدر منه من إثارة شخص كان يرجو إسلامه ، ويتكلم معه ، على
الاعمى الذي جاءه ، على أن ذلك لم يكن إلا للدين لحسب ، وبالعكس
من ذلك كلما كان المرء من طبقة عادية ، صفح عنه في صفائر الذنوب ،
وأخذه في كبائرها .

إن جزيرة « سردانية » الشهيرة فتحت حوالى سنة ٩٠ هـ ، وقد كثر
في هذا الفتح غلول . فلما كانوا في السفينة راجعين هتف هاتف غيب
وقال : اللهم أغرقهم . فغرقوا .

لقد ذكرنا أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في أول هذا المقل
وهذه الوقائع أمثلة لها والتاريخ الماضى يزخر بذكرها . أما ما يجرى

اليوم في عالمنا فهو مائل أمام الأعين إتنا نحن المسلمين لم نترك سبباً من أسباب البعد عن الله إلا وقد أخذنا عليه بالنواجذ ولا سيئة من سيئات إلا واعتنقنا ولا تزال النكبات والويلات تحيط بنا جماعة المسلمين وتراود أنفسنا . وقد بدأ التنصل عن فروع الدين وأحكامه يعمل عمله في مجتمعنا .

وكل ذلك يحتاج إلى حل سريع ، وعلاج ناجع ، ولكن هذا الحل وذلك العلاج ليس إلا في الرجوع إلى الدين ، والتمسك به والاحتراس من المعاصي .

إن كلاماً مثل هذا يسمى في مصطلح اليوم « رجعية » ، فن يجاهر بـ « الرجعية » ، ومن يؤثرها على « التقدمية » !

فإلى الله المشتكى وهو المستعان ؟

نقله إلى العربية

سعيد الأعظمي الندوي

أستاذ دار العلوم لندوة العلماء لسكرهؤ — الهند

المكتبة الإمدادية

باب العمرة ، بمكة المكرمة ، صاحبها أخونا الأستاذ ملك عبد الحفيظ

أهداف المكتبة

بقلم : تقى الدين الندوى المظاهرى

طبع وتوزيع جميع مؤلفات المحدث الكبير العلامة الشيخ محمد زكريا المعروف بـ «شيخ الحديث» ، فى شبه القارة الهندية . يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوى فى «مقدمة أوجز المسالك» عن فضيلة الشيخ محمد زكريا : « ليس الحديث له صناعة ، وعلمها فحسب ، بل هو ذوق ، وحال يعيش به ، ويعيش فيه » .

وللشيخ مؤلفات كثيرة يبلغ عددها نحو مائة وخمسين مؤلفاً .

وكذلك طبع وتوزيع جميع مؤلفات داعية الإسلام المصلح الكبير فضيلة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، كما تقوم المكتبة بطبع وتوزيع الكتب الدينية والإسلامية الأخرى ، وخاصة كتب الحديث النبوى الشريف وأصوله .

ونرجو من الله أن يحقق للمكتبة كل نجاح وتوفيق فى أهدافها الخيرة ويتقبلها بقبول حسن بفضله وإحسانه .